سبعة رجال ركراكة بين الكتابة المناقبية والتراث الشعبي

عبد المولى هاجل

gzoulasafi@gmail.com

تعددت موارد الكتابة المناقبية كما تنوعت تلك التي تتصل بالآداب الشعبية، وهذان النوعان المعتمدان لادخار ألوان مختلفة من التراث، وإن التقيا في المادة التي يحتفظان بها ويتوليان نشرها، فإنهما يفترقان في الوسيلة التي يعتمدانها لنقلها، فالرواية المناقبية ظلت منذ ظهورها في التراث العربي الإسلامي متكلة، عندما اكتملت قواعدها وترسخت، على الكتابة لضبط مادتها، لأن كتب المناقب في غالبيتها كتب آثار وقع الاقتداء فيها بطرق التصنيف في الحديث"[1]، بينما ظلت الآداب الشعبية وما اقترن بها من حكايات وقصص وأخبار إلى عهد قريب رهينة الرواية الشفوية.

رغم طغيان هذا الفارق الذي قد يبدو لأول وهلة رافعا من قدر الكتابة المناقبية في نظر البعض، ومقللا من شأن الآداب الشعبية، فإن هناك بين هذين المجالين حلقة وصل تجمع بينهما وتقلل من التباين الذي قد يرجح كفة الأفضلية للمناقب؛ ألا وهي بالكتابة التاريخية. فبالرغم من تعدد موارد الكتابة المناقبية وكثرة صيغ وروافد الآداب الشعبية فإنهما شكلا مدة من الزمن مناهل ظل المهتمون بالتاريخ وكتّاب التراجم وأصحاب السير والطبقات يغترفون منها، ويستمدون منها ما يطعّمون به مادتهم التاريخية ويرتِّقون به الفجوات ويصلحون به الفاسد ويسدون به الثغرات التي قد تعترض طريقهم. وقد اخترنا للوقوف على هذه العلاقة المعقدة بين هذه الفنون: المناقب والآداب الشعبية، والكتابة التاريخية

---

[1] التوفيق أحمد، "التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى"، نشر ضمن كتاب: *الملتقى الدراسي: التاريخ وأدب المناقب*، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 1408هـ/ 1988م، ص 82.

المواكبة لما قبل القرن التاسع عشر الميلادي والمتعلقة بقصة سبعة رجال ركَراكَـة.

ونحن إذ اخترنا الوقوف على هذه القصة فلأنها نقطة التقاء بين:

1- الحكاية المناقبية لكثرة الروايات والقصص الخاصة بهؤلاء السبعة.

2- والآداب الشعبية التي تعد منجما يحفل بالمرويات المتشعبة وفضاء مؤسسا للطقوس ومخلدا للشعائر وما ارتبط بها من أماكن وشخصيات خيالية أو واقعية.

3- والكتابة التاريخية التي يظهر من خلال ما اختارت الاحتفاظ به، ترددها بين الرفض والقبول، وميلها إلى الانتقائية والتشذيب والتهذيب.

الحكاية:

بحسب الروايات التي ساقها صاحب سلوة الأنفاس[2] محمد بن جعفر الكتاني[3]، والتي لخص فيها جل ما ذكره سابقوه، يبدو أن هناك اختلافا في عدد هؤلاء الرجال، فهم أحيانًا سبعة رفقة، وأحيانًا اثنان، بل منهم من اختصر العدد في رجل واحد؛ لكن الرواية الأكثر انتشارًا هي تلك التي انتهت إلى أن عددهم سبعة[4]. وهذه

---

[2] الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس، *سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس*، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1425هـ/ 2004م، ج 3، ص 294- 297.

[3] أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس بن محمد الزمزمي بن الفضيل بن العربي بن محمد فتحا بن علي الكتاني (1274- 1345هـ/ 1857- 1927م) من مواليد مدينة فاس. تلقى مبادئ العلم في مسقط رأسه فنهل من كل فن وهو ما أثر في مؤلفاته حيث تجد أغلبها في التاريخ وفنون أخرى كالحديث والفقه وأدب الرحلة. من مؤلفاته كتاب يحكي فيه سفره إلى المشرق سماه "الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية"، و"الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس بن إدريس" وغيرهما. انظر بخصوص ترجمته: الزركلي، *الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين*، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامس عشرة، 1421هـ/ 2002م، ج 6، ص 72 الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، *فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات*، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1402هـ/ 1982م، ج 1، ص 515- 518، رقم: 293.

[4] ظاهرة السبعة رجال منتشرة كثيرا خصوصا في حوض البحر الأبيض المتوسط، انظر بشأن المغرب الأقصى الأمثلة التي أشار إليها على سبيل المثال كل من:

أسمائهم التي لم يتم ضبطها بنفس الطريقة في النصوص المختلفة والمقتبسة من السلوة:

- سيدي وسمان أو واسمين/ واشمين المدفون بجبل الحديد.
- سيدي أبو بكر أشماش أو ابن شماس في بلد شياظمة بزاوية أقرمود.
- ابنه سيدي صالح المدفون بالقرب من أبيه.
- سيدي عبد الله أو أبو عبد الله (محمد) أدناس، وقبره بالتوابت (شياظمة).
- سيدي عيسى بو خابية، وقبره بضفاف واد تانسيفت، بالقرب من مثوى سيدي عبد الله أدناس.
- سيدي يعلى بن مصلين، أو ابن عطال، والد سيدي شيكر أو شاكر. المدفون بحسب بعض الروايات بأمسكن أو أمسيكن، وبحسب البعض الآخر برباط ابنه السابق الذكر بالمعمورة.
- سيدي سعيد أيبقا، أو أبو يبقا بتمازت، أو بثلاثاء شياظمة.

سافر السبعة قبل الهجرة إلى مكة لمقابلة نبي الإسلام ﷺ، فحدثوه باللغة البربرية، فأجابهم بلغتهم، ودعاهم لاتباعه، فاستجابوا لدعوته وسلكوا طريق الإسلام، ثم عادوا لبلادهم لنشر العقيدة الجديدة. وبهذا اعتُبر هؤلاء الركَراكَيون أول مسلمي المغرب، وبناء على هذه الرواية ادعى أحفادهم أن سبعة رجال ركَراكَة كانوا من الصحابة[5].

ما علينا إن كانت هذه القصة من نسج الخيال أو خليطا لأحداث عاشها أسلاف هذا البلد فسجلتها الذاكرة الشعبية ولونتها بألوان تستجيب لظروف وأوضاع اجتماعية وسياسية وغيرها، مرت بها

Westermarck, Edward, *Ritual and Belief in Morocco*, Toronto, The Macmillan Co. of Canada, Ltd, 1926, p 142- 143.

جلاب حسن في كتابه: *الحركة الصوفية بمراكش: ظاهرة سبعة رجال*، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 1415هـ/ 1994م، ص 165- 167.

[5] ناقش العلماء، خاصة المغاربة منهم، منذ فترة طويلة، مسألة صحبة سبعة رجال لنبي الإسلام، ولم يقر أغلبهم بهذه الصحبة ولا بادعاءات ركَراكَة التي تأسست على ما يبدو على حدث أو واقعة لم تحتفظ لنا الذاكرة الشعبية بحيثياتها، ولم تتمكن الكتابة التاريخية بضبط مصادرها ولا التأكد من زيفها أو صدقها بل تجاهلتها في أغلب الأحيان ولم تعرها أي اهتمام.

قبيلة ركْراكَة؛ المهم أن هذه الأحداث الخاصة بهذه القبيلة تحولت إلى حكايات، ثم منه إلى روايات ذات طابع مناقبي فتشبث بها الركْراكيون ولم يتخلوا عن التمسك بها وباتوا حريصين على تفاصيلها وما زالوا إلى اليوم مؤمنين بها وبالشرف الذي حصل لهم نتيجة هذه المنقبة التي كما ذكرنا تدور رحاها على صحبة رسول الإسلام ﷺ[6]، والدور الكبير الذي لعبه أسلافهم في جلب الدين الإسلامي، بحسب هذا الاعتقاد، لبلاد المغرب.

هذا باختصار شديد مضمون هذه الحكاية التي لعبت مختلف رواياتها ومكوناتها، عبر قرون، كما تبرهن على ذلك معظم الوقائع التاريخية التي اصطدم فيها الركْراكيون بالموحدين والسعديين والعلويين، دورا هاما في تاريخ المغرب الأقصى.

وقبل الحديث عن هذا الدور، لا بد من الوقوف على بعض الملاحظات الطفيفة التي قد تفصح عن جزء من الخصائص التي تتسم بها مختلف روايات هذه المنقبة. أول ما يتبادر إلى الأذهان عند الاطلاع على أغلب رواياتها هو طغيان أثر التعريب على أسماء الشخصيات المذكورة في الحكاية بحيث إنك ترى أثر البربرية على أصولها، في حين يبقى التركيب أو القالب الذي أُخضعت له قالبا ينطبق غالبا على الأسماء العربية أو بالأحرى النسب العربي، فعندما تحتفظ أسماء مثل: واسمان، ومصلين، وأدناس، وغيرها بأصلها البربري تظهر لنا أسماء أخرى ذات طابع عربي يقلل من حدة هذه الأصول ويضفي على الشخصيات التي ترمز إليها صبغة عربية إسلامية إضافية لها مبرراتها كعبد الله وصالح وسعيد. لا شك أن هذه العملية تستجيب لظروف وشروط فرضتها تحولات اجتماعية وسياسية وثقافية شهدها المغرب الأقصى يوما ما، فبرزت الحكاية هذه لتواجه بطريقتها أو لتستجيب لمتطلبات هذه الظروف ولضرورات طوى التاريخ ذكرها، فاستغلت المنقبة، وقبلها التراث الشعبي، هذا التجاهل وهذا الإغفال الذي قد يذهب في بعض الأحيان إلى حد الطمس، وأطلقت

---

[6]انظر ما حشده الرجراجي السعيدي، محمد بن البشير المقدم، من حجج لإثبات هذه الصحبة في كتابه *السيف المسلول فيمن أنكر على الرجراجيين صحبة الرسول* ﷺ، الصويرة، مطبوعات المعهد الشعبي الإسلامي بالصويرة، 1407هـ/ 1987م.

العنان للسانها ثم بعد ذلك لقلمها لملئ هذا الفراغ ومنح فرصة الدوام والاستمرار لما أغفله التاريخ متأرجحة في بعض الأحيان بين الرموز والإشارات وفي بعضها الآخر بين التصريح والإفصاح[7].

وهذا ما يدعونا إلى الميل إلى القول بأن المنقبة كيف ما كان نوعها، خصوصا في المحيط المغاربي، إنما هي ثمرة حكايات شعبية كانت متداولة في هذا الحيز الجغرافي في الأوساط الشعبية لتأدية دور المستودع أو الخزان لما قد يهمله التاريخ أو يطمسه، أو لتبرير طقس من الطقوس، أو إضفاء شرعية على حدث أو شخصية أو مكان يتمتع بهالة قد ترقى إلى حد القداسة لدى قبيلة أو مجموعة من القبائل؛ ثم انتقلت هذه المنقبة من التداول الشفوي إلى التدوين والكتابة، وهو تحول لم يتم دون التأثير في شكلها ومضمونها. وعلى هذا تكون نقطة انطلاق المنقبة إذن نواة انتقيت من التراث الشعبي، ثم تداول هذه النواة الكتاب وأصحاب الأقلام المتمرسة ونمّوها حسب ضوابط وقواعد وتقاليد ثقافية فرضتها لغة وضوابط الكتابة المناقبية وسلطة الأقلام العالمة[8]. وما تعدد الروايات وكثرتها واختلافها إلا دليل على الأصول الشفوية لهذه المنقبة، وبرهان على خضوعها لتأثيرات مختلفة ثقافية واجتماعية وسياسية.

---

[7] انظر

Bencheikh, Jamel Eddine, "Iram ou la clameur de Dieu, le mythe et le verset", dans *REMMM*, 58, n° 4, 1990, p 70.

[8] يقول التوفيق أحمد في دراسته: "التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى" بخصوص كنية أبي يعزى: "فأبو يعزى، من نصوص مناقبه، ومن خلال غيرها ، شخص تاريخي يحمل كنية صيغتها ، بدخول « أبو » عليها ، عربية ، مما انتشر من صيغ الكنى العربية بالمغرب في ذلك العهد الموحدي، علامة جديدة على تبني المغرب لثقافة المشرق، أما الياء في أول "يعزى" فتحتها كسر، أصلا، لأنها لتخفيف همزة تحتها كسر في "إعزّا" وهو العزيز، فأبو يعزى هو أبو العزيز كنية اجتهد فيها معاصروه، وأضافوا لاسمه الذي هو يلنور "إلا النور" أي: أبو النور أو ذو النور أو النوري، وقد كني شيخ شيخه وهو عبد الله بن واكريس (ابن صاحب المحلاة) المدفون في وسط دكالة بأبي النور، وتنطقه العامة فيها "سيدي بنور" ثم تساءل الباحث المذكور بعد دراسة مختلف مفردات أسماء الولي المذكور قائلا: "هل كانت الكنى العربية أو المصوغة عربيا قد دخلت في الاستعمال الشفوي العادي في ذلك العصر أم هي مما اختص باختراعه مقيّدو الأخبار؟". "التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى"، ص 85.

قد يستمر هذا التقلب والتداول بين الأوراق وأحاديث الناس[9]، ثم يتواصل النقل من كتاب إلى كتاب، ثم من مجال إلى مجال فتنضاف لهذه الثمرة التي أفرزتها النواة تحسينات وألوان تمليها مرة قريحة المؤلف وميوله الثقافية والمذهبية، ومرة نوعية وقواعد المجال الذي نقلت إليه. فمنقبة سبعة رجال التي تهمنا هنا تجدها في التراث الشعبي بمختلف اللهجات البربرية أو العربية تتمدد أو تتقلص حسب الظروف واستجابة لبراعة الراوي، فتقرأها في كتب التراجم والمؤلفات المناقبية باللغة العربية بصيغة الفن أو الجنس الذي ينتمي إليه الكتاب[10].

هذه التأثيرات جلّها والتفاعلات جميعها التي خضعت لها الكتابات المناقبية[11] في المجال المغاربي لم تُؤخذ غالبا بعين الاعتبار، بل إن أغلب من تطرق لدراسة هذين الفنين أو الجنسين تعامل معهما من منظور مشرقي محض، بمعنى أن جل الدارسين انطلقوا من عيّنات ومميزات تليق بالكتابات المناقبية المشرقية فأسقطوا عليها خلاصاتهم واستنتاجاتهم دون مراعاة لخصوصيتها الثقافية والاجتماعية والحضارية. فلفظ منقبة عربي، له معان ومرادفات مثل فضيلة، وترجمة، وتعريف، وخبر، وسيرة، ومآثر، وأخلاق إلى غير ذلك، وهي كجنس تنتمي في بداياتها لعلم الحديث، حيث تجد أن مختلف مصنفات الحديث بدءا بصحيح البخاري ومرورا بسنن النسائي، وانتهاء بمستدرك الحاكم، أفردت كتبا مما تحويه لجمع الأحاديث والأخبار المتعلقة بمجموعة من الشخصيات التي أثرت بحضورها في المسار تاريخي الإسلام في شمال إفريقيا، فسجلت هذه الكتب فضائلهم، وعددت مناقبهم، وحرصت على ذكر مآثرهم، بينما تجد الكتابة المناقبية المغاربية مختلفة سيما في بداياتها عما جرى في المشرق، لأنها متأخرة النشأة، أعجمية

---

[9] اليوسي، *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حطي وأحمد الشرقاوي إقبال، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1402هـ / 1982م، ص 103.

[10] انظر مثلا ما ذكره مفتاح محمد في "الواقع والعلم الممكن في المناقب الصوفية" نشر ضمن *التاريخ وأدب المناقب*، ص 31.

[11] أما بالنسبة للآداب الشعبية، فالدراسات التي كرست لهذا المجال جد حديثة تكاد تنبثق كلها من الأبحاث التي قام بها المستشرقون في فترة الاستعمار، فالحكم عليها وعلى الخلفيات التي تستند إليها يتطلب وقتا وجهدا لا يسمح به الظرف الذي يفرضه علينا موضوع هذه الورقة.

اللغة خصوصا في مرحلتها الشفوية[12]، مرتبطة إلى حد كبير بالتراث الشعبي المغاربي، هذا التراث الذي ظل، إلى عهد قريب، مجالا مغلقا مجهولا بل مزدرا، مما جعل دراسته والوقوف على نقاط الوصل والفصل بينه وبين مجالات لا شك أنه أثر فيها كالأدب والتاريخ والمناقب وغيرها، من قبيل النادر إن لم نقل المعدوم لولا تدارك الأدوات التي أدخلها الاستعمار ونشوء الجامعات الحديثة التي استطاعت بعد جهد كبير تدارك بعض ما تفرق من شمله وجمع شتاته وترتيب ما أمكن تدوينه.

جوانب أخرى من قصة سبعة رجال

ومما احتفظت لنا به الآداب الشعبية بخصوص رجال ركـراكـة، تلك الحكاية التي تجاوزت علاقة هذه القبيلة بالإسلام وربطتها بماض سحيق يرجع إلى أندلس ما قبل الفتح الإسلامي، وذلك عن طريق جعل أجداد رجال ركـراكـة أندلسيي الأصل[13]. يقول المختار السوسي في المعسول نقلا عن بعض الصحف التي عثر عليها: "أن الرجراجيين من بقية الحواريين، وأنهم انتقلوا من جزيرة الأندلس إلى المغرب قبل الإسلام، وكانوا يحفظون عن أجدادهم أن نبيا مبعوثا، فبقوا يتربصون مبعثه، فحين أخبروا بمبعث رسول الله ﷺ جمعوا رؤساء المغرب فسافروا في جمع عظيم تحت رياسة سبعة ..."[14].

ليس الغرض في هذا المقام المقارنة بين مختلف الروايات ولا دراسة طريقة عرضها للأحداث، أو تتبع مراحلها، ما يهمنا هو الوقوف على كيفية خضوعها للنموذج الأصلي المتجسد في السيرة النبوية والذي يحوي القصص الكثيرة عن اعتقاد سائد بين النصارى حول بعثة نبي في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، بل إن الرواية التي احتفظ لنا به المختار السوسي تذهب إلى أبعد من ذلك حين تجعل من رجال ركـراكـة بقية من الحواريين، وهذه في

---

[12] أي أن مصادرها في أغلب الأحيان ظلت بربرية.

[13] ركوك علال، مقال "الدور"، *معلمة المغرب*، سلا، مطابع سلا، 1421هـ/ 2000م، ج 12، ص 4096.

[14] السوسي المختار، *المعسول في الإلغيين وأساتذتهم وتلامذتهم وأصدقائهم*، المحمدية، مطبعة فضالة، 1380هـ/ 1960م، الدار البيضاء، مطبعة الجامعة، 1381هـ/ 1961م. ج 4، ص 6.

اعتقادنا هي النقطة أو المسلك الذي اجتازت هذه الحكاية من خلاله الحاجز الذي ابتكره المحدث أو المؤرخ أو صاحب الطبقات لتستقر كحلقة أنتجها الموروث الشعبي تربط بين ما هو مرفوض مستبشع وما هو مقبول ومحمود بل ومقدس مم قبل حراس الدين وحماة العلوم، فتناقلتها الأجيال بعد ذلك مما أتاح لها فرصة استطاعت من خلالها تترسخ في الأذهان، ولم تلبث إلا فترة حتى دخلت مجال التدوين لتصبح من الموروث المدون.

اعتمادا على ما ذكرناه يمكن القول أن نقاط التشابه أو الالتقاء بين هذه الحكاية بمختلف رواياتها وقصص أخرى ترمي لأهداف ربما متوازية أو متشابهة، هي التي أهلتها في اعتقادنا لكي ترقى إلى مجال التدوين فتتداولها العلماء بالدرس والتمحيص، وتضاربت الآراء حول صحتها، واستمر الحال على ذلك إلى أن أصبحت جزء لا يتجزأ من تاريخ ركْراكَة.

يقول جمال الدين بن الشيخ معلقا على أسطورة إرم ذات العماد: "إذا اخترقت الأسطورة مجال التدوين فذلك لأنها وجدت ثغرة يمكن من خلاله اختراقه. فعبور الحدود يعني قلة الحذر. لكن ما معنى الثغرة؟ وما الذي يجعل في مثل هذه الثقافة العربية الإسلامية المحكمة التنظيم، ذات المعايير التقييمية الصارمة والمستحيلة الاختراق، أنه بمجرد أن يصبح الجسم الغريب داخلها، لا يمكن كبحه؟ والسر في ذلك أن السردية المخيالية تختفي من مكان ليتم إعادة انبعاثها في مكان آخر. لم ننجح أبدًا في محوها من أي خطاب. يمكننا إدراجها لا استيعابها، إنها تمرق من نص إلى نص عن طريق إحباط عملية المراقبة؛ ولا يكفي تبرير هذه التنقلات عبر اتهام العقل بالاسترخاء والحكم على روح النقد بالإغفاء، حجج سهلة للغاية يحتج بها دائمًا الخطاب الديني. إن اندفاع المتخيل نحو مجالي المقدس والمعرفي يجد طاقته في ذاته، ومن الملائم التفكير فيه"[15].

[15] مرجع سابق

J. Bencheikh, op. cit., p 76.

عندما تقتحم حكاية سبعة رجال مجالا أدبيا كالسيرة النبوية فإنها تتلون بما يمكّنها من اختراق هذا الحقل دون كبير عناء بحيث تتخذ لها موقعا داخله لبسط نفودها وإرساء دعائمها، ثم ترخي زمام الأمور لصروف الزمن حتى يتأتى لها من يتولى إعادة تحريرها وصياغتها وتحويلها إلى ما يشبه المنقبة، وعندما ترسي هذه النواة جدورها وتبسط نفوذها يصبح لزاما بعد ذلك على العلماء والمتخصصين مناقشة سندها ومتنها ومدى صحتها من كذبها، ومهما كانت نتيجة الحكم، تكون الحكاية بمختلف رواياتها قد بلغت غايتها وضمنت استمراريتها ولفتت انتباه العام والخاص فتناولتها الأجيال كما ذكرنا بالنقل والتداول حتى أصبح ذكر قبيلة ركَراكَة وما تعلق بها من أحداث ذات صلة بالماضي وبتاريخ المغرب الأقصى لا يتم إلا مقترنا بهذا الشرف الذي يستمد شرعيته من هذه الحكاية.

كان ربط رجال ركَراكَة بالحواريين وإضفاء صفة التوحيد عليهم الذريعة التي تم من خلالها ربط الماضي بالحاضر، ومن ثم تأهيل هؤلاء السبعة لمباشرة مهمة أخرى تتمثل في الهجرة نحو جزيرة العرب، تصديقا للسر الذي كانوا يتوارثونه جيلا بعد جيل، سر بعثة نبي بأرض العرب، وتحقيقا للرغبة في الحصول على شرف صحبته، وحمل رسالته لأرض المغرب. فالهجرة إلى جزيرة العرب والعودة منها إلى أرض الأجداد تعد مرحلة أساسية في مراحل ما يحكى عن هؤلاء السبعة، إذ كل ما يحيط بهذه القصة وما يحوم حول هذه الهجرة ستترتب عنه نتائج ذات أهمية بالغة. وكفى دلالة على مكانة وقوة هذا العنصر ما أثاره من جدل في أوساط العلماء سيما فيما يتعلق بمسألة صحبة سبعة رجال لرسول الإسلام، فالصحبة ليست بالأمر الهين، ولا ينال شرفها إلا من شهدت له البراهين والحجج الدامغة على صحة زعمه، وهذا ما تشهد به العديد من المؤلفات التي صنفت لهذا الغرض وتصدى فيها أصحابها لهذه المسألة للحسم في أمر من صحت صحبته ممن لم تصح، فتولت التقعيد لها ووضع ضوابطها[16]. والوقوف عند هذه

---

[16] انظر على سبيل المثال، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، تحقيق علي محمد البيجاوي، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، 1380هـ/ 1961م، ص 1- 25.

النقطة جدير بالدرس والتمحيص خصوصا فيما يتعلق بالمغرب الأقصى وذلك لأهميتها كنموذج حي يمكن من خلاله إبراز بعض نقاط الاتفاق والاختلاف إن لم نقل التصادم بين الحكايات المناقبية والتراث الشعبي من جهة والكتابة التاريخية من جهة أخرى[17].

بقي أن نضيف بخصوص هذه الصحبة أنها مبنية على هدف أو مرمى لا يمكن تحقيقه إلا باللجوء إلى الهجرة والانتقال من مكان إلى آخر، هذا الهدف هو لقاء الرسول ﷺ والتحدث إليه، فالاجتماع بنبي الإسلام هو الذي سيمكن رجال ركَراكَة من إدراك درجة الصحبة، صحبة النبي ﷺ، وبالتالي تحقيق صلة وصل بين الرسالة المحمدية ومسؤولية نشر الإسلام بالمغرب الأقصى، فبنيل درجة الصحبة، استطاع رجال ركَراكَة، ولو بشكل رمزي، الانصهار والذوبان في قاموس الصحابة، وبالتالي الحصول على مرتبة تشريفية خاصة لهم ولقبيلتهم بل وحتى ولنسلهم وذلك عبر القرون، سيما إذا علمنا أن هذا الشرف، كما ذكرنا سابقا، أمر نادر في المغرب الكبير بل إنه يكاد يكون منعدما في المغرب الأقصى، على عكس شرف النسب الذي تشبثت به على سبيل المثال سلالة الأدارسة ومن جاء بعدهم كالعلويين وغيرهم[18].

لم يتم كما رأينا في هذه الحكاية توظيف الكرامات ولا الحوادث الخارقة لصياغتها وتشكيل عناصرها السردية، بل اعتبرت الخوارق والكرامات على ما يظهر من هذا النموذج من الحكايات محدودة المفعول لارتباط الكرامات في الغالب بالأفراد، أو لأنها غير قابل لتحقيق الاستمرارية التي يتمتع بها مثلا شرف النسب أو شرف الصحبة، فمفعول الشرفين يظل ذا دلالة رمزية دائمة، إن لم نقل سرمدية؛ وهي الدلالة التي تفسر لنا تشبث ركَراكَة على سبيل

---

[17] هناك تلخيص لهذا التعارض والتضارب في مقدمة محمد بن البشير المقدم الرجراجي لكتابه *السيف المسلول*، حيث تصدى المؤلف لما قدمه المؤرخون وغيرهم من شكوك حول صحبة سبعة رجال، فليطلب هناك، ص 4- 5، وانظر أيضا المختار السوسي، *المعسول*، ج 4، ص 11- 12، السعيدي الرجراجي، محمد، *رجراجة وتاريخ المغرب*، الرباط، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، 1425هـ/ 2008م، ص 9- 14.

[18] السبتي عبد الأحد، "أخبار المناقب ومناقب الأخبار"، ضمن: *التاريخ وأدب المناقب*، ص 105- 107؛ المنصور محمد، "تصوف الشرفاء، الممارسة الدينية والاجتماعية للزاوية الوزانية من خلال مناقبها"، ضمن: *التاريخ وأدب المناقب*، ص 15.

المثال، بشرف الصحبة والاحتفاء به عبر مرور السنين عن طريق الكتب التي ألفوها للدفاع عنه والهالة التي أحاطوا بها سبعة رجال فأقاموا لذلك طقوسا وعادات يعد ما يسمونه بـ"الدور" أو "الموسم" أحد أبرز مظاهرها.

الدور أو الموسم

حديثنا عن الدور الموسم لن يكون إلا عابرا لأنه يستلزم دراسة خاصة همها الأساسي إبراز أهمية هذه الظاهرة وعلاقتها بالحكاية المناقبية، أما عن دورها في الأدب الشعبي فإن عددا من الدراسات بلغات مختلفة قد أحاطت بهذه الظاهرة درسا وتمحيصا باللجوء إلى مختلف المناهج والمقاربات المتاحة اليوم لتناول مثل هذه الظواهر[19]. لكن هذا لا يمنعنا من إبداء بعض الملاحظات حول ما يسمى "بدور ركَراكَة":

1- انعقاده في فترة زمنية معينة (حوالي أربعين يوما) تتخللها مراسم احتفالية أو طقوس محددة. وهذا يحيل إلى زمن أصلي /قدسي.

2- التزامه بأمكنة (أضرحة أو قبور لأولياء القبيلة)، لها رمزية دينية واجتماعية خاصة تتمثل في كونها دعامة لترسيخ تلك الروابط القبلية، وإضفاء نوع من القداسة عليها عن طريق هالة التعظيم التي تتمتع بها هذه الأمكنة.

3- احترامه لطقوس محددة قد تخضع في بعض الأحيان لبعض التغييرات الطفيفة، استجابة لظروف زمنية معينة، ولكن القصد منها دائما تجديد وتأجيج علاقة الإنسان بما هو مقدس.

4- تمسكه بترديد الحكايات والشعائر التي تعيد إلى الأذهان ذكريات الماضي سواء كانت هذه الذكريات واقعية أو حتى من نسج الخيال.

---

[19] الزاهي نور الدين، *المقدس الإسلامي*، الدار البيضاء، توبقال، 1426هـ/ 2005م، ص 50-51؛ نفسه، *المقدس والمجتمع*، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1432هـ/ 2011م، ص 82- 88؛ Reysoo, Fenneke, *Pèlerinages au Maroc : Fête, politique et échange dans l'Islam populaire,* (Recherches et travaux de l'Institut d'ethnologie), Paris, Maison des Sciences de l'Homme, 1995, p. 28*suiv*.

جميع هذه الملاحظات تلتقي في العنصر الرابع الذي يرتكز على الحكي والسرد، وفيه تجتمع المنقبة التي يمكن اعتبارها النسخة النهائية والقصوى، لاحتوائها على النواة التي انبثق منها كل شيء، (الهجرة -لقاء النبي- العودة إلى المغرب، الفوز بالصحبة، أسماء "الصحابة" المعنيين بهذا الأمر)، والتراث الشعبي بما يشتمل عليه من طقوس ومرويات رأت النور على ما نعتقد ركونا لنص مؤسس لها اندثر بعد أن أدى دوره التأسيسي. إن السرد بمختلف مظاهره يشكل في هذه المناسبة، مناسبة الدور أو الموسم، العمود الفقري لكل تلك الطقوس التي ينبني عليها هذا الموسم، فهو الذي يتولى توليد الدلالة وإضفاء المعنى على كل مكان أو موضع أو ناحية ضمت ضريحا أو حوت زاوية أو مسجدا أو أرضا وطأتها أقدام هؤلاء "الصحابة" أو من جاء بعدهم من أولياء رݣراݣة.

ويكفي للتدليل أكثر على مبلغ قوة هذه الطقوس المرتبطة بالمناقب والآداب الشعبية وعلى خطورة مفعولية رمزيتها العروج على بعض الإشارات التي تجدها متناثرة هنا أو هناك في كتب المناقب أو متداولة بين العامة فيما يتداولونه بينهم من الحكايات ويمارسونه من الطقوس في كل مناسبة أو حفل ارتبطت أو لم يرتبط بموسم أو دور. هذه الإشارات التي قد تتضمن بعضها المناقب أو الروايات الشعبية كفيلة، في رأينا في بعض الأحيان، بإبراز مدى تأثير مثل هذه الطقوس وفاعلية هذه الحكايات، على الأقل في المجتمعات الماضية. ونحن نكتفي هنا لتأكيد ما ذهبنا إليه بذكر حدث واحد سطره المؤرخون وغيرهم كمحمد الصغير الإفراني أو اليفرني في *نزهة الحادي* يتمثل في سبب نقل شلو الإمام الجزولي إلى مراكش، قال:

"إن عمر المغيطي الشياظمي[20] ويعرف بالسياف قدم بعد موت الشيخ مظهرا طلب ثأر الشيخ الجزولي ممن سمّه، إذ مات

[20] عمرو بن سليمان الشياظمي الشهير بالسياف. أحد أتباع ومريدي الشيخ الجزولي، ثار بعد اغتيال شيخه مطالبا بثأره، ثم دعا بعد ذلك لنفسه واستمرت ثورته في منطقتي الشياظمة وحاحة عشرين سنة الى أن اغتالته نساؤه سنة 890هـ/ 1485م. التادلي الصومعي، *المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى*، تحقيق علي الجاوي، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، "منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير"، 1407هـ/ 1996م، ص 272- 274، و ص 325- 326؛

مسمومة، وصار يدعو الناس إلى نفسه وأخرج الشيخ من قبره، وصار بحمله وأينما توجه به بنصره الله على أعدائه إلى أن قتل عمر المذكور في قضية طويلة". وقد استوقف هذا الحدث الناصري صاحب الاستقصا فزاد هذا الأمر وضوحا حين قارن ما فعله المغيطي برفات الشيخ الجزولي بتابوت بني إسرائيل فقال:

"وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت وصار يقدمه بين يديه في حروبه كتابوت بني إسرائيل فينتصر على من خالفه وقيل إنّه لم يدفنه وإنما أخذه بعد موته فكفنه وجعله في التابوت وجمع الجموع وقاد الجيوش وسفك الدماء واستمرت فتنة في الناس عشرين سنة"[21].

ونحن بفتحنا هذا القوس لرصد هذه الواقعة، إنما كان هدفنا من وراء ذلك أن نبين كيف يسرد المؤرخ بعض الوقائع والأحداث ويسطرها دون الخوض في حيثياتها، وكيف يتحيّنها مؤلف المناقب ليضعها في قالب يراعي إشعاعها الروحي متمسكا قدر الإمكان بطلاوتها الرمزية، نفس الوقائع والأحداث التي تسعى الذاكرة الشعبية عن طريق نسج الحكايات حولها وربطها بالتقاليد وما والطقوس (المواسم- والاحتفالات- وما يسمى بالدور) وبالتالي فصلها عن الزمن التاريخي ودمجها في التاريخ الشعائري المرتبط بالأمكنة والأزمنة التي باركها الأولياء بحضورهم الرمزي أو الفعلي، وهو ما يؤدي غالبا إلى ترسيخ بعض المعتقدات دون غيرها، وإضفاء الشرعية عليها عن طريق ابتداع طقوس، وإرساء مواسم ومحافل تتخذها القبيلة أو الجماعة حصنا حصينا للصمود أمام كل المحاولات التي تسعى لطمس هذه المعتقدات، أو تلك الموجات التي تطمح إلى إخماد تأججها كتلك التي قام بها أحد السلاطين المغربة الذي أمر بإنشاء سبعة رجال بمراكش في مقابل

الفاسي محمد بن أحمد، *ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع و ما لهما من الأتباع*، فاس، 1305هـ/ 1887م، ص 12- 14؛ والناصري، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1374- 1377هـ/ 1954- 1956ج 4، ص 122 وما بعدها.

[21] الناصري، *الاستقصا*، ج 4، ص 122.

سبعة رجال ركَراكَة كردة فعل منه للهزيمة التي ألحقها به الركَراكَيون في أول معركة دارت بينه وبينهم[22].

قد توظف عناصر أخرى في هذا الصراع، وقد تجند له أجناس أدبية أخرى لترسيخ المعتقدات والتقاليد والرموز المتنازع عليها، ولنا في الشعر خير دليل على ذلك، لأن الشعر ضرب من الخطاب الذي غالبا ما يلجأ إليه العلماء، خصوصا في الغرب الأقصى، إما لغرض تربوي تعليمي، أو لتخليد ذكر شخصية أو واقعة، أو غير ذلك من الأغراض التي يتخذ فيها الشعر كمطية أو ذاكرة وثائقية تدعم هذه المعتقدات وهذه التقاليد. وهو ما حصل بخصوص رجالنا السبعة حيث حضي رجال ركَراكَة ورجال مراكش بقطعتين صغيرتين من الشعر حفظت لنا أسماء الرجال وأهمية زيارتهما.

القطعة الأولى (ركَراكَة)[23]:

زيارة أهل الله من أعظم الأجر ... وكنز فلاح في القيامة والحشر

فقدم بأقصى الغرب سبع أجلة ... لهم رتب عليا على أهل ذا القطر

بصحبة خير الخلق خصوا وقدموا ... بمغربنا طرا على كل ذي قدر

فذاك ابن شماس ونجله صالح ... ووسن عبد الله أدناس ذو السر

بو خابية عيسى ويعلى بن واطل ... سعيد بن يبقى في الملا طيب الذكر

بهم فخرت رجراجة وهم الألى ... أتوا مصطفى الرحمن في صحبه الغر

فرد سلام القوم باللغة التي ... بها سلموا والسر منه لهم يسري

---

[22] اختلفت الروايات حول هذا الموضوع، ولقلة المصادر وندرة المخطوطات المنشورة حول هذه الفترة نكتفي في هذا الصدد بذكر بعض من تطرق لهذه النقطة. انظر الإفراني، نزهة الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1419هـ/ 1998م، ص 255، والعباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، ط 2، 1419هـ/ 1998م، ج 10، ص 254؛ ابن الموقت، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، تحقيق أحمد متفكر، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الثالثة، 1432هـ/ 2011م، ص 140؛ جلاب حسن، الحركة الصوفية بمراكش، ص 171- 173.

De Castries, Henry, " Les sept patrons de Merrakech ", *Hespéries ; Archives berbères et bulletin de l'institut des hautes études-marocaines*, Tome : IV, 1924, p 259- 260

[23] الكتاني، *سلوة الأنفاس*، ج 3، ص 296؛ الرجراجي، محمد بن البشير، *السيف المسلول*، ص 25؛ العباس بن إبراهيم السملالي، *الإعلام*، ج 10، ص 355.

تـأدب بتقديم الـصـحابـة واغـتـنـم ... زيارتـهم تحظـى بمأدبة الأجـــــــر

فـلـو بـلغ الصوفي أقصى نـهايـــة ... تقاصر عن إدراكـهـم وهو ذو النــزر

وأهدي صلاة لـلحبيب مـحـمــــد ... تلاها سلام عـرفه طيب النشـــــــر

وارضَ عن الآل الكرام وصحبــه ... نـجـوم الـورى والآل مـن ذلك الـبحـر

القطعة الثانية (مراكش)[24]:

بمراكش لاحت نجوم طوالــــــع ... جبـال رواس بـل سيوف قواطـــع

فمنهم أبو يعقوب ذو الغار يوسـف ... إلـيه تـشـير بـالأكف الأصابــــــع

ونجـل أبي عـمـران عـياض الـذي ... إلى علمه في الكون تصغي المسامع

وبحر أبي الـعباس لـيـس يخوضـه ... سـواه كـريم لا يزال يمانــــــــــع

ونجل سليمان الجزولي فضلـــــه ... شهيـر ومـن يـدعـى إليـه يســـارع

وتـبـاعـهـم بحر الـكـرامة والـهـدى ... وسيـدنـا الـغزواني نوره ساطـــــع

أبا القاسم السهيلي دأبا أضف لهـم ... إمام التقى والعلم بـحـره واســـــع

فزرهم على الترتيب في كل حاجة ... يـسهلـها المولى وعنـك يـدافـــــع

فـيـا أهل الـلـه قـومـوا بـسرعــــة ... وجُدُّوا بـسيـركـم فـإني ضـــــارع

فعار عليكم أن يضام عبيدكـــــم ... وقد مد بـيـنـكـم يـداً والأصابــــع

فـنـجـمـكـم نـجـم السلامة والـهـدى ... وفضلكم بين البرية شائـــــــــع

هاتان القطعتان مليئتان بالرموز والإشارات وقد تحتاجان لمزيد من الدرس والتمحيص لاستخراج لب ما تحويانه من عناصر قد تفيد في فهم الغاية من إقحام عنصر كالشعر في كتب المناقب والتاريخ عموما[25]، وهذا أمر لا يتسع له هذا البحث، وما سقنا هذه الأمثلة هنا، سواء منها المتعلقة بالأحداث التاريخية أو بالشعر، إلا لإبراز مدى قوة حقل كالمناقب الذي لولاه لضاعت آثار وتراجم وحيوات، ولطمست تقاليد وطقوس أفرزتها وقائع

---

[24] غالبا ما تنسب هذه القصيدة لأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي (1040- 1102هـ/ 1631- 1691م)، لكن ذلك مستبعد للحجج التي قدمها جلاب حسن في كتابه *الحركة الصوفية*، ص 173- 174؛ وتجد الأبيات عند محمد الصغير الإفراني في *درر الحجال في مناقب سبعة رجال*، تحقيق حسن جلاب، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 1421هـ/ 2000م، ص 28؛ ابن المؤقت في *السعادة الأبدية*، ص 29؛ والعباس بن إبراهيم السملالي في *الإعلام*، ج 10، ص 358.

[25] انظر على سبيل المثال:

Cheikh-Moussa, Abdallah, L'Historien et la Littérature Arabe Médiévale, Arabica, Vol. 43, 1996, pp. 152- 188.

وصرعات ظلت حبيسة روايات تناقلتها العامة والخاصة، يرويها بعضهم لبعض على شكل حكايات شفوية غالبا ما تحشر فيما يطلق عليه اليوم بازدراء: "الآداب الشعبية".

<u>المصادر والمراجع</u>

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البيجاوي، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، 1380هـ/ 1961م.

ابن الموقت، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، تحقيق أحمد متفكر، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الثالثة، 1432هـ/ 2011م.

الإفراني، محمد الصغير، درر الحجال في مناقب سبعة رجال، تحقيق حسن جلاب، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 1421هـ/ 2000م.

<u>نفسه</u>، نزهة الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1419هـ/ 1998م.

التادلي الصومعي، المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، "منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير"، 1407هـ/ 1996م.

التوفيق أحمد، "التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى"، نشر ضمن كتاب: التاريخ وأدب المناقب، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الملتقى الدراسي، 1408هـ/ 1988م، ص 81- 92.

جلاب حسن، الحركة الصوفية بمراكش: ظاهرة سبعة رجال، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 1415هـ/ 1994م.

الرجراجي السعيدي، محمد بن البشير المقدم، السيف المسلول فيمن أنكر على الرجراجيين صحبة الرسول ﷺ، الصويرة، مطبوعات المعهد الشعبي الإسلامي بالصويرة، 1407هـ/ 1987م.

ركوك علال، مقال "الدور"، معلمة المغرب، سلا، مطابع سلا، 1421هـ/ 2000م، ج 12، ص 4096.

الزاهي نور الدين، المقدس الإسلامي، الدار البيضاء، توبقال، 1426هـ/ 2005م.

نفسه، المقدس والمجتمع، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1432هـ/ 2011م.

الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامس عشرة، 1421هـ/ 2002م.

السبتي عبد الأحد، "أخبار المناقب ومناقب الأخبار"، ضمن كتاب: التاريخ وأدب المناقب، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الملتقى الدراسي، 1408هـ/ 1988م، ص 93-113.

السعيدي الرجراجي، محمد، رجراجة وتاريخ المغرب، الرباط، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، 1425هـ/ 2008م.

السوسي المختار، المعسول في الإلغيين وأساتذتهم وتلامذتهم وأصدقائهم، المحمدية، مطبعة فضالة، 1380هـ/ 1960م، الدار البيضاء، مطبعة الجامعة، 1381هـ/ 1961م.

العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، ط 2، 1419هـ/ 1998م.

الفاسي، محمد بن أحمد، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، فاس، 1305هـ/ 1887م.

الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1402هـ/ 1982م.

الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1425هـ/ 2004م.

مفتاح محمد في "الواقع والعلم الممكن في المناقب الصوفية" نشر ضمن وما كتاب: التاريخ وأدب المناقب، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الملتقى الدراسي، 1408هـ/ 1988م، ص 29- 42.

المنصور محمد، "تصوف الشرفاء، الممارسة الدينية والاجتماعية للزاوية الوزانية من خلال مناقبها"، نشر ضمن: ضمن كتاب: التاريخ وأدب المناقب، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الملتقى الدراسي، 1408هـ/ 1988م، ص 15- 27.

الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1374- 1377هـ/ 1954- 1956.

اليوسي، المحاضرات في اللغة والأدب، تحقيق محمد حطي وأحمد الشرقاوي إقبال، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1402هـ / 1982م.

Bencheikh, Jamel Eddine, "Iram ou la clameur de Dieu, le mythe et le verset", dans REMMM, 58, n° 4, 1990, 70- 81.

Cheikh-Moussa, Abdallah, L'Historien et la Littérature Arabe Médiévale, Arabica, Vol. 43, 1996, pp. 152- 188.

De Castries, Henry, "Les sept patrons de Merrakech ", Hespéries ; Archives berbères et bulletin de l'institut des hautes études-marocaines, Tome : IV, 1924, pp. 245- 303.

Reysoo, Fenneke, Pèlerinages au Maroc : Fête, politique et échange dans l'Islam populaire,

(Recherches et travaux de l'Institut d'ethnologie), Paris, Maison des Sciences de l'Homme, 1995.

Westermarck, Edward, Ritual and Belief in Morocco, Toronto, The Macmillan Co. of Canada, Ltd, 1926.